« مجنون الورد » : الأشياء قبل الكلمات ...

د. محمد برادة

- ١ -

يفد على طنجة ، عروس الشمال ، كما تلقبها مصلحة السياحة ، طفل لم يتجاوز سن السابعة صحبة أسرته الهاربة من المجاعة ، بداية الاربعينات ، والحرب في أوجها ... في مخيلته صور محدودة لقرية « بني شيكر » ، وعلى لسانه كلمات من اللهجة الريفية يحاول أن يسمي بها الاشياء . بعد قليل سيلقى القبض على الاب لانه لاذ بالفرار من صفوف الجيش الاسباني المتقاتل في حرب أهلية طاحنة ، لا تعنيه ، هو المغربي ، في شيء ...

يتقدم محمد شكري الطفل وحيدا ليبدأ حياة التشرد دون أن يعرف المدرسة . يبدأ باكتشاف المدينة ـ الحياة من خلال أعمال يدوية متنوعة : مسح الاحذية، بيع الصحف والخضر ، الاشتغال في المقاهي والمطاعم ، التعاون مع عصابة للنشل ، ارشاد السياح ، تقليد أغاني محمد عبد الوهاب في المقاهي ...

يقترب الآن من سن التاسعة عشرة وقد جرب كل شيء ، واستوعب طبيعة العلاقات والمعاملات ، وعرف القسوة ولم ينعم بالحنان .. وذكاؤه يحثه على أن يواصل السير ليرتاد عالم الذين يتحدثون لغة لا تشبه الريفية ولا الدارجة ، حتى لا تظل هناك منطقة يجهلها ، وحتى لا يظل بعض الشباب من معارفه يعيرونه بالأمية . في هذه السن المتقدمة يسافر الى مدينة العرائش بحثا عن مدرسة ابتدائية تقبله .. وهناك تعلم من التلاميذ الصغار أكثر مما تعلم من معلميه وأساتذته .. وعاد الى طنجة « متعلما » ليبدأ مغامرة جديدة ومثيرة مع الكتابة والادب ... لكن شكري الذي نخرته سوسة الحياة واغراءات التجربة لا يستطيع ان يحترف الكتابة عن « الاشياء » من خارجها ، وهو الذي اعتاد أن يثقب القشرة ليرتاد الشرنقة . الحياة أولا : ادمان الكأس وادمان الليل فرارا من البلادة والجهل ومن الجنون والموت . ولم يستطع أن يقاوم وحده قساوة العيش على الهامش ، فأصيب بانهيار عصبي ومكث بمستشفى الامراض العصبية أربعة أشهر خلال سنة ١٩٦٤ . تبدو له الكتابة الآن نوعا من الادمان لتهدئة حساسيته المرهفة ، ومواجهة فوضى الاشياء والمجتمع .

وان تعوزه « المادة » ، فقد اختزنت ذاكرته وأعصابه وجسده ما لا تستطيع « اللغة الفصحى » تشخيصه . بعد محاولات قليلة ، نشرت له مجلة « الآداب » قصة بعنوان « العنف على الشاطىء » سنة ١٩٦٦ ، وتلقى رسالة من الدكتور سهيل ادريس يشجعه فيها على المضي في الكتابة ...

هكذا دخل محمد شكري المجال الادبي ، فأثار انتباه الادباء المغاربة الشباب « المتعلمين » في المعاهد والكليات ، وأصبح صوتا متميزا بتجربته المدخرة ، وبتعبيره العاري من الحذلقة والتصنع .. وكما في الحياة ، سيحاول الكثيرون تهميش كتابات محمد شكري لانها « وقحة » تسمي الاشياء ولا ترمز لها ، تختار نماذجها من المنبوذين والشواذ وممن يعيشون في الحضيض ... الا ان جوهر « ظاهرة شكري » لم يلتفت اليه أحد : مقابل الكتابات الرومانسية والتجريبية « الطلائعية » ، ومقابل النصوص المعتمدة أساسا على « نصوص غائبة » .. يأتي شكري بمنطلق آخر : الاشياء قبل الكلمات ، المعيش قبل المتخيل ، الموشوم أخاديد على الجسد قبل التبشير بالافضل ومناجاة الثورة المنتظرة ودفن الاحباطات في القصائد والقصص الأسيانة .. وهو في كل ذلك يصدر عن تجربته الخاصة : اكتشف الاشياء أولا وجها لوجه بدون أسرة تحميه ، ولا مدرسة توجهه ، ولا طفولة هنية يختزن ذكرياتها .. فتح عينيه منذ الوهلة الاولى على عالم الكبار الذين يتصارعون في محيط المجتمع وفي قاعه لضمان اللقمة وحماية النفس ، يحتكمون الى أعراف أشبه ما تكون بقانون الغاب ، والقيمة البشرية ملغاة في عهد الحماية وعند أصحاب المخزن .. وأن تكون ، الى جانب ذلك ، ريفيا مجتثا وافدا على مدينة ذات « أصول » ، معناه اكتساب صفة النفاية عن جدارة ... الا ان شكري لم يقبل هذا « الامر الواقع » الذي يجعل من الاكثرية المهمشة رغم ارادتها ، خادمة لاقلية تحميها

المواضعات الاجتماعية ؛ فبدأ يعبر عن احتجاجه ومناهضته بلغة الجسد قبل أن يتعلم اللغة المكتوبة : « كنا أحيانا نستعمل شفرات الحلاقة والسكاكين في معظم العراكات التي كانت تصل أحيانا الى حالات دامية ... » .

على العكس من معظم كتابنا الآخرين ؛ تعلم محمد شكري لغة الاشياء العارية القاسية ، قبل أن يتعلم الكلمات « المعبّرة » ، لذلك تظل حياته اليومية هي الاساس ، وتغدو الكتابة بالنسبة له ادمانا جزئيا يرفض أن يجعل منه قناعا للتجميل أو مطية للارتقاء في السلّم الاجتماعي ...

- ٢ -

الخيوط التي ينسج منها شكري قصصه تنتهي الى رسم « جغرافيا سرية » للمدينة ولتحت ـ أرضها. تبدأ تناسلها ؛ جميعها ؛ من مناخ الهامشيين أو من عالم الاطفال . يبدأ الحكي بتلقائية توهمنا انه يحكي واقعة من « الوقائع المختلفة » ، شاهدها في الطريق أو قرأها في الصحيفة وأعاد صياغتها . لكن هذا التوهم سرعان ما يبدده سطوع كلمات مفاجئة وعبارات مكثفة محملة بالايحاءات والدلالات ، تنقلنا الى عالم قصصي تؤطره وتوحده تلك الخيوط المتناثرة فيمختلف القصص . قوام هذا العالم عند شكري ، الهامشيون أو الليليون (مقابل النهاريين كما يحلو له أن يقسم الناس) ؛ الذين صنفتهم المؤسسة الاجتماعية في تراتبيتها الهرمية لتجعل منهم نقيضا للمواطنين « العاديين » الاساسيين .. هم ؛ اذن ؛ من يضرب بهم المثل عن الشذوذ واللاأخلاق والرذيلة والفحشاء والمنكر .. ولا يمكن لمجتمع أن يتصور نفسه بدونهم ، لانه اذا كان من الصعب تشخيص « الفضلاء » وممثلي الاستقامة بكثرة . فان من السهل تكثير المنحرفين وتهميشهم لاستعمالهم كنماذج لا تحتذى وكسلوك يزجر عنه ، ويعاقب عليه ... في قصة « بشير حيا وميتا » يجسد شكري هذه العلاقة الغريبة بين العاديين العقلاء ؛ والشواذ المجانين : بشير « الاحمق » يقلق الآخرين لكنه يسليهم لانه ليس ما هم . يتحلقون حوله وهو ممدد في الشارع متمنين موته.. وعندما يستيقظ منغيبوبته يصابون بخيبة أمل : « سينظرون اليه كشبح وهو يسير بينهم » .

الاطفال أيضا لا يفهمهم العقلاء مع انهم « ليسوا دائما حمقى » ؛ الا انهم يربكون عالم الكبار المصنوع من الضوضاء والكلام المجاني وافتعال المشاعر والافكار . بدلا من ذلك يقترح الاطفال الصمت والحلم واطلاق سراح الحمائم !

التلقائية نفسها التي يحكي بها . تلازمه وهو يسمي الاشياء المكونة للاهتمامات اليومية عند أشخاصه الهامشيين . ويكون الجنس في طليعة تلك الاهتمامات . ان الثنائية الفاصلة بين الاشياء تنعدم في سلوكاتهم ؛ والجسد كلي ؛ به يواجهون العالم ومنه يستوحون ردود الفعل .. والشهوة تختلط بما هو نباتي وحيواني ؛ بالوجود والعدم : « ... يتأملها أرسلان . هي تستريح مغمى عليها وهو يستريح لاهثا . تمتزج الرغبة في ذهن أرسلان بالشروق والبحر ، تمتزج بالازهار وطيور الصباح ؛ تمتزج بطنين الذباب والخبز اليابس الاسود ؛ تمتزج تلك الرغبة في حواسه برائحة القيء والموت والصمت الطويل » (من قصة «القيء») . ولعل قصة « الخيمة » التي حالت الرقابة دون نشرها؛ هي أجمل نموذج تتحقق فيه فكرة شكري عن الجنس ـ الاله حين يغدو فرحة وعيدا ووليمة وارتماء في أحضان البحر ، وملامسة جسدية لعناصر الطبيعة ...

غير ان كثيرا من قصص شكري تنقل الينا الصورة البئيسة للجنس عندما يكون جسدا يباع أو كتلا لحمية تلهث وراء لذة دفنتها العقد ، وغيّبها الارهاق .

- ٣ -

تتصف لغة شكري باقتصاد قريب من الشحّ . يزكي هذا الانطباع توزيع التركيب العام على جمل قصيرة تسندها أفعال المضارع السائدة في معظم القصص . الا ان هذه البنية اللغوية العامة يتخللها تكسير مباغت من خلال جمل طويلة متماسكة مختلفة عن جمل الوصف والسرد . هذا « التكسير » ينقلنا من الاشياء الى امتداداتها في نفس الكاتب . ثم يعود النص الى مستواه الاول قبل أن ينكسر مرة أخرى ... في قصة « شهريار وشهرزاد » ، تسود الجمل القصيرة مثل « سقط الكأس من يدها على الطاولة » ، ويأتي الوصف والسرد في رتابة مقصودة ؛ وفجأة تطل جملة طويلة تكسر هذه الرتابة وترسم بعدا جديدا للاشياء : « .. لو ان هذا الاحساس كان نحو الاشياء وحدها ؛ لظللت أحدق فيها حتى أجن أو يكف احساسي هذا الغريب عني ... » .

من ثم فان القرابة التي نستشعرها بين التقنية القصصية عند شكري وبين طرائق الرواية الجديدة . لا تلبث أن تتلاشى ؛ لان واقعية شكري لا تقوم على تغييب ذاته من اللوحة . على العكس ، يظل صوته حاضرا همسا وجهرا من خلال تلك الجمل المفاجئة الصادرة عن غور عميق .

ونلمس في القصتين : « أشجار صلعاء » و « مجنون الورد » تطويرا لهذا التركيب الفني العام

الذي حاولت تحديد أهم عناصره ... في هاتين القصتين تزيد كثافة اللغة ويتخلل الرمز الشخوص « الواقعيين » . بعبارة أخرى . تتميز الكتابة لتحد من سرعة تدفق الاشياء المتزاحمة على بوابة الذاكرة .

— ٤ —

تظل العلاقة بين الكتابة والذات والواقع المعيش . حزمة من التساؤلات المتشابكة كثيرا ما تفضي بنا الى متاهة مسدودة ... وحين أفكر في « حالة » محمد شكري . تبدو لي العلاقة بين هذه العناصر الثلاثة ملتبسة . وتهتز فعالية الكتابة ازاء حضور الذات ـ الجسد ، وازاء انعكاسات الواقع علىحيوات الناس...

هل يرجع ذلك الى ان الكتابة ليست كل شيء في حياة شكري ، وانما هي وسيلة مكملة للتعبير عن الوجود بما هو موجود ؟ أم يعود ذلك الى المنطلق الذي ينطلق منه : استيحاء عالم الهامشيين وكانه عالم منغلق على ذاته ، وجد منذ الازل وسيمتد الى الابد غارقا في صراعاته وهلوساته وبؤسه المادي والمعنوي ؟

ما يزكي هذا الانطباع الاخير في نفسي هو غياب المحور الآخر ، محور الفئات « الاساسية » في علائقها الجدلية مع الهامشيين . من ثم انعدام ردود فعل « واعية » عند هؤلاء الاخيرين . ربما لان الكاتب يخشى من ضجيج الشعارات وتكرارية التبشير ، الا ان هذا العزل يحجب عن العالم القصصي لمحمد شكري أشعة الوعي التغييري المتناسل عبر جميع طبقات المجتمع المغربي بحثا عن افق لا يهمش الاغلبية ... وحين يبتعد شكري عن رصد عالمه الخاص ، ويطل على العالم ـ المجتمع ، تتخذ قصصه صورة الحلم ـ الفانطاستيك ، كما في : العائدون ، والشعراء والزاحفون ... ولعل قصة « الكلام عن الذباب ممنوع » هي أنضج نموذج عنده في محاولة معانقة كابوس القمع والتعذيب وخنق الحريات .. الا ان تجربة العالم الهامشي تظل محفورة في أعماق بطل « الكلام عن الذباب ممنوع » عندما يتفوه بهذه العبارة : « .. قد يعطفون عليك ، لكن لا أحد يستطيع أن يساعدك » .

— ٥ —

الاحساس بأسبقية الاشياء في قصص شكري يطرح المسألة المألوفة في المناقشات النقدية حول علاقة الكلمات بالاشياء أو مدى قدرتها على التعبير عما هو حي ومدرك من خلال الذات . ومسألة عجز الكلمات المزمنة .. لكن حلّ هذه المشكلة عن طريق الاقرار بقصور الكلمات عن تجسيد الاشياء والتجارب والعلائق، يبقى حلاً سهلا يلغي ضمنيا جدوى الكتابة وضرورتها.. أو يفتح الابواب أمام كل طارق بدون تمييز ...

رغم حالة شكري . فان زخم أشياء عالمه الخاص الذي تبدو الكلمات قاصرة عن أن تطوله ، راجع الى ان الكاتب لا يحرص على أن يضع « مسافة » بينه وبين التجارب التي عاشها أو المشاهد التي رصدها .. من ثم تلك السخونة المنبعثة من قصصه ، وأيضا ذلك الانغلاق الذي يشبه الدوران في فلك واحد . ووظيفة المسافة التي يضعها الكاتب بينه وبين الاشياء ، هي افساح المجال أمام التجربة لتختمر وتتخثر وذلك عن طريق اخراجها من الحيز الضيق لالتقاطها أو معاناتها ، ومحاولة تقليبها في تربة اخرى أفسح وأعمق ، أي موضعنها في اطار أعمّ يلتقي فيه فهم المجتمع بفهم الادب وتجارب الكتابة وأشكال التعبير .. من ثم لا تظل الكتابة نافلة ، بل تغدو تعريفا ضروريا للواقع وتركيبا جديدا للاشياء من خلال تجديلها (أي اضفاء طابع الجدلية على ما تلتقطه مبعثرا) .. ويغدو واقع الاشياء ، واقعا محلوما به وواقعا متخيلا وواقعا ممكنا ومستحيلا في آن .

نحسّ في قصتي « أشجار صلعاء » و « مجنون الورد » ، ان شكري يطيل المسافة بينه وبين الاشياء من خلال تكثير الاصوات داخل النص (الشاعر الكسيح ، المجنون ..) ومن خلال الترميز وتحميل صيغ قرآنية مضامين مختلفة .. لكن هذا المجهود في الكتابة لا يتأسس على مراجعة نقدية لاشياء الواقع المعيش فتظل القصص مشدودة الى « واقعيتها » ، مكتظة بأشيائها (مثلما هو الشأن في قصة التابوت) .

الا ان قيمة قصص شكري تتجلى ، كما قلت آنفا، في مقارنتها بقصص كتاب مغاربة آخرين ، يستعيضون عن الفعل والتجربة والاشياء بالتوهم ولالآة الكلمات وتحليل الذات ...

واعتقد ان التحولات الاخيرة في كتابة محمد شكري ستحقق ذلك « التوازن » الذي افتقدته بين زخم الاشياء ـ الذاكرة ، وبين الكلمات ـ المسافة .. وعندئذ تكون المواجهة بين « الهامشي » المنبوذ وبين المجتمع « الاساسي » مواجهة عنيفة لا تكتفي بتقديم عناصر صك الاتهام ، بل تسهم في صياغة الكلمة ـ الحلم ـ المعول لاقتلاع الحيف والغبن ، وتفتيت قيم التحريم والتقديس .

محمد برادة